سورة الكهف

alukah.com

obeikandl.com

﴿ سورة الكهف ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ ﴾

أى فى الترقيات العرفانية، وفى التلقى والسفر إلى حضرة الله عز وجل ، فهم فى ترقٍ دائم حتى بعد الانتقال إلى الدار الآخرة، كما قال أحد العارفين: إن ترقى العارف لا ينقطع حتى بعد موته.

﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۝٥ ﴾

أى أن هذا الترقى والتلقى لا ينبغى أن يكون للكفار والمنافقين علم به، لكثافة حجبهم وتمكن الظلام من ذواتهم، فلا يشمون رائحته.

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾

تحركت فيه ﷺ الرحمة العامة بحكم الإراثة عن الحق عز وجل، والتى رحم الحق بها كل شئ فقال عن نفسه: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾.

فلما علم الحق سبحانه أن ذلك لن يجدى شيئاً فى تلك الذوات لما سبق فى علمه القديم من سوء عاقبتها، قال سبحانه لحبيبه محمد ﷺ : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ ﴾.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ ﴾

زينها لأجل غواية ضعاف القلوب، ولأجل تثبيت العارفين بهذه الزينة، ولذلك قال سيد الحكماء على بن أبى طالب كرم الله وجهه:

" **يا دنيا غرى غيرى طلقتك ثلاثا طلقتك ثلاثا طلقتك ثلاثا** " وسئل السيد أحمد الرفاعى ﷺ عن صفة العارف المتمكن ؟ فقال: هو ذلك الرجل الذى لو وضع على أعلى رمح ووضع على قمة جبل عال وهبت عليه الرياح من جميع النواحى لم تزحزحه من مكانه قيد أنملة .

﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾ ﴾

الكهف إشارة إلى الخلوة مع الله، ولذلك سبقها بالكلام عن العزلة مما يعبدون من آلهتهم، وأعظم تلك الآلهة هو الهوى والميول النفسية والقلبية المعطلة عن معرفة الحق سبحانه، فأمرهم بالإيواء إلى الكهف – أى الخلوة – حتى يتهيأ لهم نشر المعرفة الإلهية والتلقى عن الله فى تلك الخلوة، فحينذاك يتهيأ لهم من أمرهم مرفقاً .

﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ ﴾

لكونه صاحب الصنعة، ومركب العلة فيها ومزيلها، فهو المعل كما قال الحلاج رحمه الله فى تفسيره للقرآن الكريم بأنه سبحانه "معلُ الأكوان "، ولنا تعليق نفيس على تفسير القرآن للحلاج وهو مطبوع، ولن يستطيع كان من كان أن يخرج الصنعة الإلهية عن مسارها، ولن يستطيع حكيم أو مخترع أو ذكى أن يغير حقيقة الفطرة الإلهية .

يقول سبحانه وتعالى عن ذلك: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلاً ﴾، فما أراده الله صالحاً فهو صالح، وما أراده فاسداً فهو فاسد، ثم يركب فى كل عين العلة الموجبة لصلاحها أو فسادها.

ولو تسلسلنا لتحققنا أن حقيقة العلة هى من صفات الحق سبحانه لا غير بلا تعليل لها، إذ حكمه وحقيقة حكمه فى الأعيان لا تعلل، فهو سبحانه لا يحب أن يسئل عما يفعل مع خلقه، ويغضب ممن يبحث عن السر و العلة التى أوجبت صلاح هذا أو فساد ذاك .

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴿١٨﴾ ﴾

أى وتحسبهم فى حالة البقاء، وهم فى حالة الفناء عن كل ما سوى الله.

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴿١٨﴾ ﴾

أى نقلبهم نحن، ولم يقل هم يتقلبون بأنفسهم، وفيه إشارة إلى ترك الاختيار مع الله، فهو المقلب لهم بنفسه لا هم المتقلبون بأنفسهم، وقوله ذات اليمين وذات الشمال: فيه إشارة إلى تضاد الجهات، أى أنه سبحانه يقلبهم فى أى جهة وعلى أى حالة كانت، ولا يجد منهم سوى القبول والرضا التام.

﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴿١٨﴾ ﴾

الكلب هى النفس ـــ أى أن النفس البهيمية فى أصحاب الكهف سكنت وهو قوله باسط ذراعيه، ومن بسط ذراعه فهو فى سكون تام، وفيه إشارة إلى زوال مرحلة المجاهدة وتمامها فى نفوسهم، بعد تهذبها واكتمال مرحلة المجاهدة فيها.

﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾

أى لو اطلعت على حقيقتهم التى أخفوها وتستروا بغيرها فلن تحسبهم أيقاظاً، أى فى حالة البقاء، بل تعمق فيهم إلى ما وراء، وافنى

obeikandl.com

عن سر البقاء فيهم إلى سر الفناء، فإنك حينذاك ستولى منهم فـرارا وستمتلئ من تلك الحقيقة رعباً.

وقد حدثنى أحد أصحابنا العارفين ــ وهو من تونس ــ رحمه الله عن تلك الحقيقة فقال: إن أحد الشيوخ كان له سبعمائة مريد فسألوه عن علم الحقيقة ؟ فقال لهم: إنكم لن تتحملوه، فأصروا عليه فى ذلك، فجمعهم فى خلوة وسرد عليهم بعضاً من علم الحقيقة، فحكم عليه ستمائة منهم بكفره وبقى منهم مائة، فسأله المائة عن علم الحقيقة، فحكى لهم شيئاً أعلى مما سبق من علم الحقيقة، فحكم عليه خمسون منهم بالكفر، فسأله الخمسون عن علم الحقيقة، فجمعهم وحكى لهم شيئا أوسع من علم الحقيقة، فحكم عليه أربعون منهم بالكفر، فسأل العشرة الشيخ عن علم الحقيقة، فجمعهم وحكى لهم شيئاً صعباً من علم الحقيقة فحكم عليه تسع منهم بالكفر وبقى واحد منهم، فقال له الشيخ: أنت ذلك الواحد الذى أطلبك من السبعمائة.

﴿ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾

قلت فيه جواز بنيان القباب على أولياء الله عز وجل، إذ الآية فى منتهى الصراحة والوضوح، إذ ليس فى القباب ضرر يذكر إلا إعلاء شأن الولى بين الخلق وتوضيح منزلته، ولكى يتذكروا الله به فيما بعد، فأولياء الله حصن أمان للخلق.

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴿٢٤﴾ ﴾

لكى يقدم ﷺ ربه على كل أحواله، وعلى كل أمور الدنيا والآخرة، فإذا أرجع العارف كل شؤونه إلى خالقه كان فى راحة تامة، وهو مقام التفويض التام، وهو قوله سبحانه على لسان من قال:﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾.

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴿٢٤﴾ ﴾

وفى الحقيقة لا نسيان للنبى المرسل ـ لكونه غفلة عن مولاه ـ وحاشاه الخليفة المستخلف فى الأرض عن الله من الغفلة والنسيان، فالأنبياء معصومون من النقائص والغوائل القلبية والتى أعظمها نسيان ذكر ربهم، وإنما كان الخطاب للأمة على لسان النبى، لكون الأنبياء متحملين لهموم الأمة، وبهم يقتدى المقصر.

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾

أمره ﷺ بالصبر مع خواص الخواص من أمته، وأمره سبحانه ألا يعدوعيناه عنهم يريد زينة الحياة الدنيا، ولا يطع من أغفل قلبه عن ذكره.

قلت: وفيه إعلاء لقدر السادة الفقراء، ووجوب توقيرهم ومحبتهم، والسعى للتأدب التام معهم، ووجوب نصرهم إذا أسىء فى حقهم، ورد غيبتهم وحفظ حقوقهم.

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

وإنما ضرب الحق سبحانه مثلا للحياة الدنيا بنزول ماء من السماء، لكون السماء موضع الطهارة وعدم التلوث بما يوجد فى الأرض من غش وكذب ونفاق ورياء، وعلل سبحانه أن اختلاط ذلك الماء الطاهر النقى بما هو يلوثه من نبات الأرض، وذلك لكون الأرض موضع الظلمات والذنوب والمعاصى، فإذا اختلط الطاهر بالجنس أصبح مجرد هشيم تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدرا.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾

أى أن موسى قال لفتاه: لو أنفقت من عمرى أحقاباً من الزمان فى طلب مجمع البحرين، لما كان ذلك بكثير على طالب المعرفة والحقيقة، ومجمع البحرين، إشارة إلى التقاء علمى الظاهر والباطن، فعلم الظاهر بحر وعلم الباطن بحر، وطلب هناك موسى لقاء الخضر عليهما السلام بأمر ربانى.

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

أشار سبحانه إلى علم الباطن الذى يوجد لدى الخضر عليه السلام بأنه رحمة من عند الحق سبحانه، وهو بخلاف رؤية موسى عليه السلام لهذا العلم وما صدر عنه من إنكار على الخضر، نحو قوله: لقد جئت شيئاً إمراً وقوله: لقد جئت شيئاً نكراً.

obeikandi.com

واعلم أن الرحمة الباطنية الخاصة بالخضر فى هذا العلم أعم وأشمل من الرحمة الظاهرية الموسوية الخاصة بموسى كما سيأتى تأويله فافهم.

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾ ﴾

وفيه: جواز تعلم الأعلى من الأسفل .

وفيه أيضاً: اختصاص الحق سبحانه للأسفل بعلوم لا توجد مع الأعلى.

وفيه أيضاً: وجوب اتباع الأعلى وتتلمذه على الأسفل لحين من الزمن لحكمة إلهية يعلمها الله.

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٦٧﴾ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾ ﴾

وهذا لتناقض العلوم مع بعضها البعض، كتناقض الفقيه مع الصوفى، فكان موسى بمثابة الفقيه وكان الخضر بمثابة الصوفى، ومثال ذلك ما حكاه اليافعى فى كتابه نشر المحاسن من أن العز بن عبد السلام كان ينكر على الشيخ محى الدين بن عربى ﷺ أمام الناس، فإذا خلا مع الصوفية والخواص امتدحه فسئل عن سبب ذلك ؟

فقال: أذب عن ظاهر الشريعة.

واعلم أن الحق سبحانه أعطى أرباب الظاهر وهم الفقهاء علماً لا يلتقى مع أصحاب علم الباطن وهم الصوفية، فهما فى خطين مستقيمين لا يلتقيان أبداً، حتى قال بعض أرباب الأحوال: إن الفقيه مثاب فى إنكاره على الصوفية، لكونه يذب عن ظاهر الشرع والله أعلم.

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾

وهذا هو شرط صحة الإتباع، أن لا يبدأ المريد سؤال شيخه عن شئ، لأن في ذلك إساءة للأدب مع الشيخ، ولكونه ـ أي السؤال ـ من دواعي الاختبار والامتحان، والشيخ منزه عن مثل ذلك.

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾

أعلم رحمك الله أن الخضر عليه السلام أراد أن يقول لموسى عليه السلام لما خرق السفينة:

يا موسى لقد كان فى خرق السفينة نجاة المساكين من ذلك الملك الذى كان يأخذ كل سفينة غصباً وقد نجاك الله فى اليم فى صندوق من فرعون ــ ذلك الملك الظالم الذى يشابه الملك الذى يأخذ كل سفينة غصباً ــ فهذا من ذاك فلما تنكر علىَّ ؟

وأراد أن يقول له لما قتل الغلام: يا موسى لقد قتلت نفسا بغير نفس لما وكزت ذلك الرجل وفررت، فهذا من ذاك فلما تنكر علىَّ؟

وأراد أن يقول له لما أقام الجدار المنقض بغير أجر: لقد سقيت لابنتى شعيب بغير أجر فهذا من ذاك فلم تنكر علىَّ ؟

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

نعم نحن نراه بحراً، ولكنه نقطة من ماء بجانب عظمة الحق عز وجل، فكيف تكون لهذه النقطة إحاطة بكلمات الله عز وجل ؟.

وكما قال شيوخنا من السادة العارفين بربهم: إن الكون بجوار الكرسى كحلقة ملقاة فى فلاة، وإن الكرسى بجوار العرش كحلقة ملقاة فى خلاة .